

ا.د.سعاد هادي حسن الطائي  
دراسات في تاريخ المغول والايلخانيين  
دكتوراه تاريخ اسلامي  
عنوان المحاضرة: الأصول التاريخية للقبيلة  
الذهبية ودورها في نشر الاسلام بين المغول  
(624- 665/ 1226-1266م)

## \*أولاً:نشوء القبيلة الذهبية " : Golden Horde

ظهرت القبيلة الذهبية " آلتون أوردو " المغولية وتأسست نواتها الأولى كقوةٍ سياسية وعسكرية جديدة أثرت وتأثرت بجميع مايجاورها من قوى سياسية وعسكرية ، وقد أثر ذلك سلبياً وإيجابياً في الواقع والمجتمع الذي ترسخت فيه أسسها الأولى؛ لترك بذلك آثاراً سياسية وعسكرية واجتماعية وحضارية واضحة المعالم على تاريخها وبمختلف مراحلها .

انبثقت النواة الأولى للقبيلة الذهبية قبل وفاة زعيم المغول جنكيز خان سنة 624هـ/1226م ، فقد عهد لأبنائه ولاية الأقاليم التابعة للإمبراطورية المغول وهو لايزال على قيد الحياة ، رغبةً منه لتدريبهم على مباشرة مهام الحكم وتحمل المسؤوليات ، وفقاً لما نص عليه قانون المغول الذي يُسمى اليساق والذي كان يتضمن قوانين عدة منها القانون الذي كان ينص على أن يمنح الأب قبل وفاته قسماً من أملاكه لأبنائه الكبار على أن يتم ذلك وفقاً لترتيب منظم يتحكم به سن كل واحدٍ منهم على أن يترك الجزء الأهم من أملاكه لأصغر أبنائه ، أي أن أصغر أبناء جنكيزخان قد ورث عنه وفقاً للقانون المغولي الأملاك الأصلية للإمبراطورية وهي القسم الشرقي من منغوليا .

وقد أشار المؤرخ بارتولد مؤكداً أن التقاليد والأعراف لدى المغول أكدت أن توزيع هذه الأملاك يجب أن يتناسب مع مسافة بُعد الإقطاع أو الأرض لكل ابن طردياً مع عمره ، وبموجب ذلك كانت حصة الابن الأكبر لجنكيزخان الذي كان يدعى جوجي خان أبعد الأراضي مسافة .

ولابد لنا من الإشارة الى أن الإمبراطورية المغولية التي قُسمت على ابناء جنكيزخان وفقاً لوصيته كانت تضم أيضاً أجزاءً لم يكن المغول قد استولوا عليها بالفعل الا بعد سنة 634هـ/1236م وسنة

653هـ/1255م

لم تتأثر وحدة الإمبراطورية المغولية إلا قليلاً على وفق هذه الأحكام لاسيما المتعلقة بالأرض طيلة حياة جنكيزخان ما دامت إرادته هي القانون ، فضلاً عن أن أبناءه لم يكونوا بمثابة حكام لمناطق منفصلة وإنما كانوا بمثابة أتباع واقبال لأبيهم الذي كان يستطيع أن يعهد لكل واحدٍ من أولاده ناحيةً خاصةً من النواحي الإدارية ، فمثلاً كان ابنه الأكبر جوجي خان مسؤولاً عن ميدان الصيد وتنظيم القصور وتزيينها ، أما ابنه جغتاي خان فقد كان مسؤولاً عن تنفيذ القانون المغولي اليساق وكل ما يتعلق بميدان القتال ، وتدبير الأمور السياسية وغيرها ، أما اوكتاي خان فقد أختاره جنكيزخان للمشورة والرأي وتدبير المُلْك ، بينما كانت مسؤولية تولوي خان تنظيم وترتيب الجيوش وتجهيز الجند .

ولهذا اختار جنكيزخان وهو على قيد الحياة ابنه الثالث المدعو أوكتاي خان ليخلفه على العرش، فقد كانت القاعدة العامة التي ظل العمل بها في إمبراطورية المغول كما هو الحال في معظم الدول ذات الطابع البدوي وهي أن الإمبراطورية لم تكن تابعة للخان لوحده فقط بل أن الأسرة الحاكمة وكل فرد فيها كان له الحق فيها ، وقد سار جنكيزخان على وفق ذلك مع استثناء ابنه الأصغر الذي منحه أملاكه الأصلية وهي القسم الشرقي من منغوليا .

ولابد لنا من الإشارة الى أن جنكيزخان قام بتقسيم إمبراطوريته على أولاده الأربعة من زوجته المحظية لديه والتي كانت تُدعى يسو نجين بيكي، ولهذا كان يُعز أولاده الأربعة منها الذين قسم إمبراطوريته عليهم وهم جوجي خان، وجغتاي خان ، واوكتاي خان ، وتولوي خان .

\*ثانياً:أصول تسمية القبيلة الذهبية :

تعددت آراء المؤرخين والباحثين في سبب تسمية القبيلة الذهبية بهذا الاسم، وسوف استعرض هنا أهمها، واهم دلالاتها السياسية.

فمنهم من ذكر أنها سُميت بهـذا الأسم نسبةً الى لون خيامهم ذات اللون الذهبي، في حين ورد في مصادر تاريخية أخرى أن القبيلة الذهبية كانت في الأصل جيش مغولي أطلق عليه اسم القبيلة الذهبية لروعة معسكره .

وكان الروس يُطلقون كلمة تتار على شعب الالتون أوردا، " القبيلة الذهبية" عندما كانوا يتكلمون اللغة المغولية ، وظلوا يُطلقون عليهم هذا الاسم بعد أن تتركت المنطقة بأكملها .

ومما تجدر الإشارة اليه أن هذه التسمية لاتوجد ما يقابلها في المصادر الشرقية التي تدعوهم بدولة خانات سهول القفجاق .

فقد أُطلق على القبيلة الذهبية اسم خانية القفجاق، وكانت تضم معظم روسيا ولاسيما بعد استقرار الأتراك القفجاق في حوض نهر إتل في جنوبي روسيا الحالية ولاسيما بعد ان تركوا مساكنهم الأصلية في حوض نهر ارتش . ومن التسميات الاخرى التي أُطلقت على القبيلة الذهبية تسمية سيراورده .

\*ثالثاً:لغة القبيلة الذهبية :

قليلة هي المصادر التاريخية التي أشارت الى الأسس الأولى للغة القبيلة الذهبية ، غير ان العملات النقدية التي عُثر عليها وتعود الى القبيلة الذهبية كانت عوناً لكثير من الباحثين على معرفة اللغة التي كان سكان القبيلة الذهبية يتحدثون بها من خلال النقوش ولغة الكتابة التي نقشت حروفها على العملة .

فلقد أدخل المغول الأبجدية الأويغورية الى القبيلة الذهبية ، اذ كانت الأبجدية الأويغورية غير معروفة حتى ذلك الوقت في بلاد القفجاق ، إذ عثر على مجموعة من الفرمانات تعود للقبيلة الذهبية مكتوبة باللغة الأويغورية وتعود الى القرن 9هـ/15م ، فضلاً عن العثور على قطعة من عملة سكهها الخان توختامش ( 780 - 808هـ / 1378-1405م ) ،نقش عليها اسمه بالحروف الأويغورية ، غير أن هذه الأبجدية وجدت منقوشة على العملة في مدينة السراي ، ويتضح أن النقش بهذه الأبجدية لم يكن بشكلٍ دائم ، وان هذه القطع النقدية تدل على أن المغول وبعض الترك ، كانوا ينطقون أسماء الخانات محرفاً ؛ لأنها مكتوبة باللغة العربية ، فمثلاً كان اسم " جانبك " يُكتب بالحروف الأويغورية " جامبه ك " .

وقد عُثر على عملة نقدية تعود للقبيلة الذهبية نُقشت بالحروف التركية مثل عبارة " قو تلوغ بولسون" ، أي " أسعده الله " ، وهي قطعة لاتحمل اسماً معيناً وانها تعود لمرحلة تاريخية متأخرة ، ومن الجدير بالذكر انه لم يُعثر على عملة نقدية تعود للقبيلة الذهبية نقشت بالحروف المغولية .

ويُشير ابن بطوطة عند زيارته لقصر اوزبك خان الذي حكم القبيلة الذهبية في مرحلة متأخرة خلال رحلته لبلاد القبيلة الذهبية انه سمع أسماء تركية أطلقت على خواتين اوزبك خان مثل " أولو خاتون" ، ومعناه باللغة التركية " الوزيرة " ، و" كجك خاتون " ، ومعناه باللغة التركية " الحاجبة " ، و" كبك خاتون " ، وتعني في اللغة التركية " النخالة " .

وكان الخان نفسه يصف مربيه الروحي وهو من السادات بكلمة " آتا" وهي كلمة تركية معناها " الأب " .

انتشار الاسلام بين مغول القبيلة الذهبية :

لا يعني انتشار الدين الإسلامي بين عدد كبير من أفراد القبيلة الذهبية بالضرورة اعتناق معظمهم الإسلام بل احصر ذلك على عدد من افرادها وفي مقدمتهم الامير بركة خان.

لقد أكد ابن بطوطة من خلال رحلته الى عاصمة القبيلة الذهبية وهي مدينة السراي الى وجود أقوام من الآص، أو " الآس" كانوا مسلمين .

وأكد الراهب روبروق وغيره الى اعتناق اللآن والآس للإسلام بعد أن كانوا نصارى ، وكان قساوستهم يعفون من الضرائب شأنهم في ذلك شأن مشايخ الإسلام .

وأشار ابن بطوطة الى أن المغول وهم أهل البلاد والسلطين كان بعضهم مسلمون.وخير دليل على انتشار الإسلام في القبيلة الذهبية هو ما شاهده ابن بطوطة في مدينة السراي عاصمة القبيلة الذهبية خلال زيارته لها الى وجود ثلاثة عشر مسجداً لأقامة صلاة الجمعة ، كان أحدها للشافعية ، فضلاً عن وجود مساجد أخرى غير هذه ، مشيراً الى انه قد صلى صلاة الظهر مع أصحابه في أحد هذه المساجد عند وصولهم الى مدينة السراي.

وقد أشار ابن بطوطة الى وجود عدد من شيوخ وعلماء الشافعية والمالكية في مدينة السراي . وربما قد تكون هذه إشارة الى انتشار المذهب الشافعي والمالكي في بلاد القبيلة الذهبية بعد اعتناقهم الإسلام .

وأشار ابن بطوطة الى وجود زوايا عدة في مدينة السراي والقرم عند زيارته لهم .  
ولم يلبث الدين الإسلامي أن انتشر بشكل كبير بين عدد كبير من أفراد القبيلة الذهبية من مغول القفجاق ، وهذا الأمر زاد حدة الخلاف والنفور بينهم وبين مغول بلاد فارس، وأصبح مغول القفجاق في أثر ذلك قوةً كبرى تفرح لما يُصيب المسلمون جميعاً من خير ، وتتألم اذا ما أصابهم ألم وشر . ووفقاً لكل ذلك أصبح الدين الإسلامي الدين الرسمي بشكلٍ نهائيٍّ في معظم أرجاء بلاد القبيلة الذهبية بعد سنة 714هـ/1214م ، ولا بد لنا من القول إنّ التسامح الديني كان هو السمة البارزة في القبيلة الذهبية.

ومهما يكن الأمر فإنه مع انتشار الإسلام بين أفراد هذه القبيلة في اواخر القرن 8هـ/14م و 9هـ/15م أصبحت القبيلة الذهبية دولةً إسلاميةً تفرض سيطرتها على معظم أوربا الشرقية من البلطيق الى البحر الأسود ، وفي شبه جزيرة الفولجا أدت موجات الاستيطان واعتناق الدين الإسلامي الى ايجاد شعب إسلامي كبير ونشط في مدن مزدهرة عدة مثل قازان وسراي واستراخان وهذه المدن أصبحت بعد أن تجزأت دولة القبيلة الذهبية وأصبحت عواصم لخانات مستقلة

وعلى الرغم من انتشار الدين الإسلامي بين أفراد القبيلة الذهبية فقد كانت ما تزال هناك عادات وتقاليد عدة يتبعها أفرادها وهي ذاتها كانت منتشرة في منغوليا ، منها عدم استعمال مياه النهر للغسل والاعتسال، لأنها تتنافى مع تعاليم الإسلام ، وقد نُبه على ذلك سفراء السلطان الظاهر بيبرس القادمين من مصر لرؤية الأمير بركة خان ، وقد نبههم الأمير بركة خان الا يغسلوا ملابسهم في مياه النهر ، غير أنهم لشدة حاجتهم لذلك كانوا يقومون بغسلها سراً.